مقدمة

شغف الإنسان منذ الأزل بالسفر والترحال، ولا نبالغ إذا قلنا إن أول كائن بشري سلك هذا المسلك هو سيدنا آدم عليه السلام وأمنا حواء عندما هبطا إلى الأرض بأمر من الله سبحانه وتعالى لاعمارها وقد خرجت من صلب آدم شعوب إنتشرت في شتى بقاع الأرض في هجرات متوالية، واستوطنوا بقاعا لم تطأها قدم إنسان من قبل وتفرقوا شيعا وتعددت ألسنتهم وألوانهم وأشكالهم، ومن ثم أخذت الرحلات طابعا جماعيا في بداية الأمر وإن تشعبت الأهداف فمن الرحلات ما كان هدفها البحث عن الرزق كهجرات البدو الرحل سعيا وراء الكلاء والماء، أو حب المغامرة والإستكشاف كالرحلات الإستكشافية التي قامت بها شعوب منطقة الخليج العربي والفينيقيون والفيكنغ وغيرهم، أو بهدف البحث عن مناطق أفضل للإقامة.

وبعد أن تبلور وعي الإنسان ونما حسه الحضاري أصبحت الرحلات هدفا لنشر الثقافة والمعرفة والأديان وأيضا التعلم. والواقع أن الترحال ليس مسلكا بشريا فقط بل هو مسلك كل كائن حي وغير حي! فهذه الطيور تقوم برحلات منتظمة وفي أوقات محددة إلى مناطق معينة وربما جاءت ممارستها هذه قبل وعي الإنسان بفائدة ومزايا الرحلات وليست الطيور فقط التي تمارس هذه العادة بل الحيوانات والأسماك بل إن الأمر تعدى إلى الكواكب والنجوم والأفلاك بدءا من الذرات الصغيرة في حركة لا متناهية في نظام أزلي لم يتوقف منذ بدء الخليقة حتى يومنا هذا.

إذن السفر والترحال جزء من طبيعة الكائنات وليس ترفا أو هواية كما قد يتراءى للبعض، اللهم أولئك الذين جعلوه حركة إنتقال من مكان إلى آخر بلا هدف ولا معنى ولا

فائدة سوى البحث عن المتعة الحسية المؤقتة التي تجلب على صاحبها وبالا عظيما. وغني عن القول مدى الفوائد الجمة التي تعود على الإنسان جراء تنقله، فكما هو بحث عن الرزق لجميع الكائنات، هو كذلك مهنة وهواية يزاولها الكثير من الناس كربابنة السفن وملاحيها وقادة الطائرات وأطقمها وغيرهم كثير. كذلك هو بحث عن المعرفة والعلم ونشر المعارف والأفكار والمذاهب والأديان كما أسلفنا، وهو أيضا مغامرة يستهويها عدد كبير من الناس.

يقول المسعودي وهو أحد أشهر الرحالة العرب "ليس من لزم جهة وطنه وقنع بما نما إليه من الأخبار من إقليمه كمن قسم عمره على الأقطار، ووزع بين أيامه تقاذف الأسفار واستخرج كل دقيق من معدنه وإثارة كل نفيس من مكمنه".

ولم يكن مشاهير الرحالة العرب كالبيروني وابن جبير وابن بطوطة والمقدسي هدفهم الرحلة لذاتها بقدر ما كان هدفهم تأليف الكتب والمصنفات عن تلك البلدان التي زاروها ووصفوها وصفا دقيقا وتركوا لنا ذخائر لا تقدر بثمن عن عادات الشعوب وثقافاتهم وأديانهم وأحوالهم وطرق معيشتهم ولم تكن تلك المؤلفات وصفا جافا لما تقدم، بل حوت على ذخائر نفيسة من الأدب الراقي لا يتسع المجال لذكرها هنا.

كثيرة تلك الأقوال في فوائد السفر والترحال لو تتبعناها جميعا لملأنا صحائف من كتب وأسفار ونكتفي هنا بقول الفيلسوف الإنجليزي فرانسيس بيكون "إن السفر تعليم للصغير وخبرة الكبير".

وإذا أخذنا الرحلات بمعناها الحديث وهو الإنتقال بوسائل النقل المختلفة من مكان إلى آخر فإننا نزعم بأن أولى الرحلات المنظمة في التاريخ البشري هي رحلة سيدنا نوح عليه السلام في فلكه العظيم الذي حمل معه أجناسا متعددة من الكائنات التي كانت تعيش على الأرض في ذلك العصر، ولعل أقدم الرحلات التجارية في تاريخ الإنسان تلك

obeikandl.com

الرحلات التي كانت متبادلة بين شعوب منطقة الخليج العربي وغيرها من شعوب الأمم الأخرى التي كانت تسكن سواحل أفريقيا غربا، وبلاد الهند والسند شرقا ونقصد بها تلك الرحلات البحرية التي يرجع تاريخها إلى الألف الثالث قبل الميلاد.

ولاشك أننا نذكر جميعا في هذا السياق الرحلات الإستكشافية للرحالة والمكتشفين الأوروبيين، كرحلة ماركوبولو، الذي يعتبر أول رحالة أوروبي في العصور الوسطى يصل إلى مدغشقر والصين وسيبيريا وسواحل المحيط المتجمد الشمالي، ومن ثم رحلات الملاحين العظام أمثال فاسكودي غاما وكريستوفركولومبس والكابتن كوك وماجلان وغيرهم. والملاحين العرب أمثال ابن ماجد والمهري والسيرافي وكذلك الرحلات العلمية وأبرزها رحلات عالم الطبيعة البريطاني "تشارلز دارون"، ونذكر كذلك الرحلات الدينية كرحلة سيدنا موسى وسيدنا عيسى وأمه، وأغرب الرحلات الإنسانية في التاريخ رحلة سيدنا يونس في بطن الحوت، أما رحلة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس ومنها إلى السماوات العلا والتي يحتفل بها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها كل عام تحت اسم الإسراء والمعراج، فهي أعظم الرحلات الدينية في تاريخ الإنسان.

فلا غرو إذن تكون للرحلات إسهامات عظيمة في مسيرة الحضارة الإنسانية منذ نشأتها وحتى الآن، فالإنسان الذي لم يكتف باكتشاف القارات والمحيطات والغابات والصحاري صعد إلى الفضاء أو ليس نزول الإنسان على سطح القمر هو أعظم رحلاته منذ هبوطه إلى الأرض؟؟ ولم يقف طموح الإنسان عند هذا الحد بل جند كل طاقاته لاكتشاف الكواكب الأخرى في رحلات مكوكية وصاروخية لا تنتهي أبدا. ولسوف يبقى الإنسان في رحلات لا تتوقف إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولقد كان ولعي بالسفر والترحال شديدا منذ نعومة أظفاري، فقد كان والدي رحمه الله ملاحا مغامراً، وربانا متنقلاً بسفينته الخشبية العتيقة بين موانئ الخليج العربي وسواحل أفريقيا والهند والباكستان وغيرها، كذلك كان لتأثير أخوالي الذين إمتهنوا – وما زالوا – ركوب البحر حرفة لهم، شديدا على توجهي الأكاديمي بعد ذلك، حيث إمتهنت الملاحة البحرية حرفة لي وهواية، فتحت لي آفاق السفر والترحال رحبة فسيحة.

ولقد زاد من شغفي، حب التعرف على شعوب الأرض وعلى عاداتها وتقاليدها وثقافاتها، هذا الحب الذي أورثني علاقات وصداقات لا حصر لها في شتى أقطار العالم.

ويسعدني غاية السعادة أن أقدم للقارئ أول كتبي في مجال الرحلات، وهو بالطبع ليس أول ما دونت من يوميات أثناء ترحالي وتنقلي في بحار العالم وأقطاره. والذي أرجو أن يضيف شيئا جديدا للقارئ الكريم عن تاريخ وعادات وتقاليد شعوب ودول فنلندا والنرويج وآيسلندا، من خلال تجربة شخصية ومعايشة يومية للكاتب قضاها في تلك الديار مقيما ومتجولا سنين عدة.

ولقد رافقني في إحدى رحلاتي إلى تلك الدول وغيرها من دول العالم زميلي السيد فهد محمد المسلم الذي كان خير الرفيق والأنيس.

والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل.

عبد الرحمن المحمود